انسجام القصة السياق في سورة يونس

د. حامد اللّه خلف المحمد

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن قيمة القصة القرآنية في سورة يونس، واتساقها مع سياق السورة العام، الذي يقوم على إقامة الحجة على المكذبين؛ لما تتصف به القصة القرآنية من أساليب استدلالية، وسمات حجاجية في محاورة الرسل لأقوامهم، وإبرازًا لأهميتها في السورة الكريمة.

وحوت سورة يونس ثلاث قصص، هي: قصة نوح، ويونس، وموسى –عليهم السلام-. جاءت بعد إقامة الحجة على منكري الدعوة المحمدية، مبيّنة معالم حال المكذبين المتكررة في رفضهم الدليل، وتعنتهم في قبول الحجة. ومن ثم تكشف عن أثر القصة القرآنية في إقامة الحجة، وما تقدمه من تسرية عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ إذ حملت بداية أول القصص في هذه السورة أمرًا إلهيًا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (واتل عليهم نبأ نوح ...) (سورة يونس:٧١)، فهي امتداد لإقامة الحجة الإلهية، التي تهدف إلى الوعظ، والتحذير من عاقبة الإنكار.

وتنتظم هذه الدراسة في تمهيد ومبحثين، يتناول التمهيد: "مفهوم السياق" وأثره في بناء المعنى، ويُفرد المبحث الأول: لدراسة "السياق الحجاجي في سورة يونس"، ويخصص المبحث الثاني: "مظاهر الانسجام بين القصة والسياق"؛ للربط بينها وبين سياق السورة الكريمة. وتعتمد الدراسة الوصف والتحليل في محاولة استجلاء هدفها.

مفهوم السياق

لا يخفى أنّ اللغة وسيلة للتواصل والتعبير. ويُحسب لابن جنّي دقة تحديده للغة بربط المرسل والرسالة بالمرسل إليه، فاللغة "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(١)، وتخصيص الأصوات بالتعبير ضمن قوم محدد يظهر أهمية التفاعل والتواصل في إطار اللغة ضمن فئة معينة، تربطها خصائص محددة، قد تُلزم المتكلمين آليات يفرضها المجتمع(٢)؛ بغية تحقيق الهدف من التعبير، الذي يرتبط بأحوال متعددة يساق فيها الكلام(٣).

والكلام أو الرسالة اللغوية تُفْهم بأشكال متعددة، "بحسب بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه"(٤). "أو من خلال علاقة البناء الكلي للنص بأي جزء من أجزائه"(٥). وأثر السياق في المعنى يظهر من فاعليته في تفسير "الكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللغة في وظيفتها التواصلية والإبلاغية، لدى كل من منتج الكلام والمتلقي، وأنه ركن أساس في فهم الرسالة اللغوية"(٦)؛ بما له من دور فعال "في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس"(٧)، مع الأحوال المتباينة، والثقافات المختلفة، والدلالات المتعددة.

وتسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على مظاهر انسجام القصة القرآنية مع سياق السورة العام. وهي سورة مكية، تعنى بأصول العقيدة الإسلامية، توجه المخاطبين إلى الإيمان بالله، مشيرة إلى الرسالات السماوية. بدأت بالحديث عن رسالة محمد –صلى الله عليه وسلم-، وتناولت الآيات الدّالة على الألوهية والوحدانية بالحجج القاطعة. وذكرت موقف المشركين من الرسالة، وتشكيكهم في القرآن، الذي هو من عند الله، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا. وذكرت قصص الأنبياء نوح وموسى ويونس –عليهم السلام-. وختمت بأمر الرسول محمد –صلى الله عليه وسلم- بالتمسك بشريعة الله، والصبر على الأذى في سبيلها(٨).

المبحث الأول: السياق الحجاجي في سورة يونس

بدأت هذه السورة الكريمة خطابها بإشارة مباشرة إلى آيات الكتاب. تلك الآيات الدالات على أن هذا القرآن من عند الله، وأن محمدًا –صلى الله عليه وسلم- منذر من ربه. والغاية من تقديم الآية/ الحجة الإقناع. والأصل أن يقبل الإنسان

الحجة الواضحة، بيد أنّ الاستفهام ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(٩) يكشف عن حالة مناقضة للأصل، فجاء الاستفهام منكرًا، وموبّخًا، ومستعجبًا(١٠)؛ لأن إنكار الكافرين لا يقوم على حجة واضحة، أو دليل منطقي. فقد "تقرر لهم أنّ الوحي لا عجب فيه، وأنّ هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله"(١١). بل تجدهم يلقون بالقول جزافًا: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾(١٢) بلا دليل يقدمونه بين يدي كلامهم.

وبعد إنكارهم، بدأت السورة الكريمة بإيراد الحجج، بادئة بأدلة كونية، تدعو "إلى عبادة الله عزّ وجل وتوحيده"(١٣): ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(١٤). فالسماوات والأرض آيتان لا يدّعي البشر القدرة على إيجادهما، بل لا يملكون إلا الاستسلام والتسليم أمام هذه الحجة الكونية، التي تتصل بحجة عقلية فيها إجابة عن تساؤل وجودي يطرحه البشر عن كيفية البدء ومآل النهاية. فسبحانه خالق السماوات والأرض إليه المنتهى.

ومن لطائف الحجة وبلاغتها تقديم ذكر المآل ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾(١٥). ثم يذكر-سبحانه- أنه يبدؤ الخلق ثم يعيده: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾(١٦). فهذه البداية لها نهاية مردّها إلى الخالق. وتلك النهاية مقرونة بثواب أو عقاب: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾(١٧)، فلا عبثية في الوجود. والنتائج تبنى على مقدمات، فالإيمان تسبقه دلائل واضحة، والجزاء من جنس العمل، النجاة للمؤمن، والهلاك للكافر. و"البنية الشكلية للحجاج تقوم على تعالق النتائج والمقدمات وتسلسل القرائن ودقة ترابطها بحيث تكون الأولى مؤدية إلى الثانية، واللاحقة مبررة للسابقة"(١٨)، وأظنّ أن ارتباط النتائج بالمقدمات من أبرز خصائص السياق الحجاجي في القرآن الكريم.

ويعود الخطاب إلى آية كونية أخرى تدلل على وجود الخالق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾(١٩). فالمخاطَب لا يملك المحاجّة في هذه الآية -أيضًا-. وكذلك حركة الزمن بتعاقب الليل والنهار: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٢٠)، آية تنبثق عن الآية السابقة. ومن بلاغة الحجة الكشف عن قيمة الآية، وأثرها في حياة المخاطَب: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢١).

وتبرز معالم الحجة الإلهية في آخر الآيتين (٥،٦): ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٢٢)، ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾(٢٣) على الترتيب. فالعلم يأتي بعد التفصيل، والتفصيل فيه بيان للحجة، وإقامة لها. والعلم يستلزم العمل والاقتناع؛ لأن "العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون"(٢٤) كما يرى الإمام الغزالي -رحمه الله- فالعلم هو الذي يقود إلى التقوى:

(ارتباط المقدمات بالنتائج:

تفصيل ← علم ← تقوى)

فالتقوى ناتجة عن علم فُصِّلت آياته. إن العلاقات بين الأدلة والحجج تقود إلى نتائج منطقية مترابطة.

ومن ثَمَّ، تبين السورة الكريمة بعد هذه الحجج عاقبة المتلقين الذين سيقت لهم تلك الآيات، وأقيمت عليهم الحجة، فتجدهم فريقين:

الفريق الأول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾(٢٥). ويرسم الخطاب هنا معالم السببية والتعالق بين المقدمات والنتائج؛ فدخول النار ليس عبثًا أو حقدًا، بل لسبب تؤكده (الباء) السببية التي تقوم بدور فاعل في الكشف عن حال الفريقين: ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(٢٦). لقد "توعّد سبحانه الغافلين عن التفكير في عظيم آياته"(٢٧)؛ لأن الدخول إلى النار نتيجة لمقدمة هي الغفلة.

الفريق الثاني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾(٢٨). ويبرز تساؤل عن سبب الهداية، وما الذي يقود إليها؟ هذا التساؤل إجابته في (الباء) السببية -التي كشفت سبب إهلاك الفريق الأول- تُظهر سبب نجاة الفريق الثاني ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾(٢٩)، الذين آمنوا بالآيات الإلهية واقتنعوا

بالحجج الواضحة. وظهر في حال الفريق الأول ذكر الآيات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾(٣٠) فهي ماثلة لهم طوال وقت تكذيبهم. وغاب ذكرها في الحديث عن الفريق الثاني ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾(٣١)؛ لأنها تحولت إلى عقيدة راسخة، ومكوّن فكريّ، طبقوه عملًا؛ فثوابهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(٣٢).

إن وقوف السورة على حال المكذبين والمؤمنين يؤدي وظيفة إقناعيّة، توجّه المخاطَب إلى تصور مصيره. وبعد هذا يعود المكذبون طالبين طلبًا مفاجئًا ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾(٣٣)، إنّ هذا المطلب إنما هو استنكار وتعنّت في قبول الحق، بعد أن جاءهم بالبينات والدلائل التي لم يقدروا على ردّها أو التشكيك فيها.

وبعد أن أقامت السورة الحجة عليهم في الآيات الكونية تنقلهم إلى دليل يعايشونه في حياتهم ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٣٤)، "ولا شك أن القرآن الكريم، بجميع دلائله وآياته التي توجه بها إلى الإنسان وغيره، بقصد البيان، هو مندرج ضمن... حجة الله البالغة"(٣٥)، التي تلزم الإقناع والتسليم.

وتدخل بنية الاستفهام في إقامة الحجة بقصد المقابلة بين قدرة الخالق الحق سبحانه، وبين ما اتخذه الناس من آلهة تعبد: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾(٣٦). و"يمثل الزوج سؤال - وجواب الوحدة الأساسية للغة... فالكلام يعني إثارة السؤال أو التصدي له"(٣٧)، بحثًا عن التفاعل الذي يكشف عن أثر الكلام المرسل في المخاطبين، ويظهر مدى استجابته لهم.

تنبه ابن القيم –رحمه الله– إلى ما في هذه الآية من أثر في إقامة الحجة على الكافرين، إذ "سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره، من كون الرب تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت، والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم: أن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئًا من هذا، ولا يستطيعون فعل شيء منه؟"(٣٨).

لقد تكرر الاستفهام في هذه الآية أربع مرات يسأل عن القدرة في: الرزق، والسمع والأبصار، والحياة والموت، وتدبير الأمور، و اللافت أنهم يقرّون بقدرة الله فيها كلها، فهم الذين يجيبون: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾(٣٩)، جواب علم وتيقن. لقد تدرّجت السورة في بناء ترتيب الحجج حتى أوصلت المخاطَب إلى الإقرار الذاتي بقدرة الله. وترتيب الحجج ووضعها بكيفية مناسبة يزيدها "قوة ويمكّن لها في ذهن المخاطب"(٤٠).

وبعد أن أقرّوا بقدرة الله على هذه الأمور التي تشكل الوجود، وأنه سبحانه وتعالى لا شريك له في التصرف بها، يقيم الله عليهم الحجة بمقابلة أخرى تبدأ بالاستفهام ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(٤١). إنّ الذي أقرّ بالأولى لا يملك أن ينكر الثانية؛ فالحجج مترابطة. فمن أقرّ بقدرة الله على إخراج الحي من الميت لا يمكنه أن يدّعي لغيره القدرة على الخلق وإعادته. فما يعبدون من دون الله ماثل أمامهم لا يملك قدرة عل خلق أو رزق. وأنّى لهم أن يدّعوا شيئًا مثل هذا؟! فعلى المدّعي بقدرة الحجر أو الشمس أو غيرهما على الخلق أن يقدم الدليل؛ لإقامة حجته؛ لذلك لا يستطيعون المحاجّة.

وينتقل الخطاب إلى مرحلة حاسمة، وبالطريقة الاستفهامية الحوارية المبنية على المقابلة بين الحق والباطل، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾(٤٢)، ويقرر الاستفهام حقيقة واضحة، ويقدم دعوة صارخة تحفّز كل ذي لبّ: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٤٣). وحتى يكون الحجاج ناجعًا لا بد أن يتصف بالمنطقية، و"يقوم على آلية تقويم هذه الحجج ودراسة قوتها وصحتها، وتحديد مدى تجانس بعضها مع البعض الآخر، ومحاولة تقنين العلاقة بين المقدمات والنتائج"(٤٤)؛ ليصل بعد ذلك إلى التواصل مع المخاطبين بغية تحقيق الإقناع.

وبعد هذه الحجة الدامغة، يصف القرآن موقف المتعنتين ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٤٥). إنّ هذا البناء الحجاجي في النص القرآني يعمد بهذه المقابلة إلى الفصل بين حدين(٤٦) في مفهوم القدرة والقوة، الأول يظنه المخاطَب في قدرة مَن يعبد من دون الله، والثاني يُظهر قدرة الله الخالق، فتسقط كل القوى الأخرى؛ لتوقظ صاحب الغفلة. وطريقة الفصل هذه تدفع المتلقي إلى القبول بالآيات والدلائل، "بل هي تدعوه بإلحاح إلى معانقتها فهي الحقيقة"(٤٧). فالفصل بين القدرتين يبين للمخاطَب الطريق السوي بالحجة الواضحة.

ويقدم الاستفهام -الذي أقام به القرآن الحجة على الكافرين، وحثهم على التفكر والتدبر- موقف المكذبين الذين يستخدمونه للكشف عما يدور في خلدهم في حوار مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤٨). هذا الموقف الذي يمثل استجابة المتلقي للحجة بالرفض، ينبئ عن خفايا النفس المكذبة. والاستفهام يحمل التكذيب والاستهزاء والتشكيك، فهم يقولون: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي يشكّكون في حدوثه.

ويأخذ الاستفهام بُعدًا مهمًّا في نقل الصورة الحقيقية للكافرين ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾(٤٩)، فالقرآن ينذرهم قبل يوم الحسرة الذي ستكشفه القصص القرآنية في سورة يونس، وأنه لا تأخير إذا وقعت العقوبة، فعلى العاقل اغتنام ما أتيح له من فسحة زمانية للاقتناع، ويقدِّم حرف العطف (ثم) قيمة زمانية مهمة، فالله -سبحانه وتعالى- يعطيهم الفرصة، ويمهلهم، ولكنه -سبحانه- لن يهملهم. بيد أنهم يعودون منكرين مستهزئين: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾(٥٠)، "وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء... وهو أدخل في الاستهزاء؛ لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل"(٥١).

إنّ إقامة الحجة على الكافرين تلزمهم إمّا الاقتناع والتسليم، أو الإتيان بحجة يفندون بها حجج الرسل، ولكن إفلاس المكذبين من الحجة يقودهم إلى الكبر. فالله الذي أنزل إليهم الرزق، العالم بالسرائر ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٥٢) يجادله الذين كفروا بقولهم: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(٥٣). إن هذا الافتراء لا يتساوق مع الحجج المقدمة لهم، بل إن الخوض فيه خروج عن السياق العام؛ لأن الجواب يلزمه "أن يجيب عن السؤال المثار... وأن يكون معقولًا باعتباره جوابًا عن هذا السؤال"(٥٤). فهم يقطعون الكلام؛ لإفلاس حججهم، ويسوقون قولًا لا يملكون عليه دليلًا: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(٥٥)، "فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تحداهم وعجَّزهم على إقامة الدليل علم بطلان ما قالوه، وأن ذلك قول بلا علم"(٥٦).

وبعد هذا التكذيب يسوق الله سبحانه وتعالى ثلاث قصص تقدم العظة والعبرة؛ لتندرج ضمن السياق الحجاجي الذي بنيت عليه السورة الكريمة. وخاتمة قصتي نوح وموسى -عليهما السلام- تمثلان حال المكذبين وعذابهم. وترسم قصة يونس -عليه السلام- حال من تاب وأناب قبل أن يحلّ عليه سخط الله وعذابه.

المبحث الثاني: مظاهر الانسجام بين القصة والسياق

يظهر جليًّا ما للقصة من دور في إثارة المتلقي، وتحفيزه للتفاعل مع الرسالة الموجهة إليه؛ بما تحمله من مشاهد تصويرية، تثير فيه دوافع التشويق. والقصة القرآنية بصفة خاصة لا تنفصل عن سياقها الخطابي؛ لما تقدمه من استجلاء للمعنى، وإيراده بما يمكن السامع من الفهم وإقامة الروابط بين القصة وما يفيد منها عظةً وعبرة.

"والقصة القرآنية إحدى وسائل القرآن الكرين لإبراز أغراضه الدينية"(٥٧). وتقف على ذكر مسببات هلاك الأمم السابقة التي قد تصيب الأمم اللاحقة، وتقودها إلى المصير نفسه(٥٨). ينص القرآن أهمية القصص في تقديم العبرة، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ (٥٩)؛ لأنها "تكرر لغرض ديني خاص في كل موضع... فتُعْرَض مرة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها وتارة تعرض كاملة... وذلك حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك"(٦٠).

ومن هذ المنطلق ستسعى الدراسة إلى الكشف عن انسجام القصة القرآنية، والتي تتماهى مع السياق العام لسورة يونس، والتي يذكر الشوكاني -رحمه الله- مناسبة ورودها؛ و"لمّا بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبه المنهارة شرع في ذكر قصص الأنبياء"(٦١)، وهذا ما ستفصله الدراسة.

قصة نوح –عليه السلام-:

قصة نوح أول قصص الأنبياء ورودًا في سورة يونس، بعد خطاب المشركين؛ لأنهم "أول الأمم هلاكًا وأعظمهم كفرًا وجحودًا ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق؛ ليصير ذلك موعظة وعبرة"(٦٢) للمخاطبين.

بدأت هذه القصة بأمر إلهي موجّه إلى الرسول محمد –صلى الله عليه وسلم– ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾(٦٣)، هذا الفعل الأمري تعقبه مباشرة شبه جملة جار ومجرور ﴿عليهم﴾ (على+ هم)، وهذا الضمير يربط القصة (نبأ نوح) بالآيات السابقة عليها؛ لإقامة الدليل على مشركي قريش، وكل من تصله الدعوة المحمدية. وترتبط هذه القصة بالآية الثالثة عشرة من السورة نفسها ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(٦٤)، فهي تحمل حديثًا عن الأمم السابقة.

ومن أبرز ملامح هذه القصة غياب الحجج التي دارت بين نوح وقومه. فتبدأ مباشرة بمخاطبة نوح –عليه السلام– قومه: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾(٦٥)، فالآيات والحجج لم تذكر في ثنايا القصة، بل أشير إليها حسب، وفي ذلك دليل على أن دعوة الرسل واحدة، وأن الحجج والبراهين الإلهية التي قدمها الأنبياء واحدة. فالحجج التي ساقها القرآن لكل البشر على اختلاف أجناسهم.

وقوم نوح –عليه السلام– يرفضون الحجة، ورسولهم يدعوهم إلى التريث والتمهل: ﴿ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾(٦٦). ويكشف الحوار بين نوح وقومه عن زمن القصة التي تبدأ من نهايتها (يا قومي)، وقصة نوح رسمت "في القرآن الكريم من خلال مجموعة من اللوحات، تمثل كل لوحة منها وحدة مستقلة مكتفية بنفسها"(٦٧)، ترتبط بسياق محدد. وتبرز القصة "ترسخ الشخصية بذاتها من خلال يقينها"(٦٨)، (فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ)، وما يقدمه الأنبياء في قصصهم ينسجم مع حال النبي –صلى الله عليه وسلم–، في الدعوة إلى الله.

وتبني هذه الدعوة صورة للمحاجّة، ودعوة ليفكروا بشأنهم. ويضطلع حرف العطف (ثم) بآلية معنوية رابطة بين حالي الجمع –الاجتماع، وبين القرار الذي سيصدر عنه. فنوح –عليه السلام– يطلب إليهم التريث الذي يكشفه حرف العطف (ثم) المفيد للترتيب مع التراخي. فهو لا يستعجلهم القرار خوفًا عليهم من أنفسهم وتعنتهم. فالهدف من إقامة الحجة في الدعوة الإسلامية هداية الناس لا إفحامهم والزج بهم إلى العذاب.

ويعود حرف العطف (ثم) –مرة ثانية– محفزًا لهم على أخذ الفرصة الكافية، والتمهل في أخذ القرار: ﴿ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾(٦٩). وهو وحده بلا قدرة مادية؛ "مما يوقع في قلوبهم أن هذا النبي واثق من الحق الذي معه، واثق من ربه الذي يتولاه وهذا بدوره يهز القلوب ويزلزل العناد"(٧٠).

إن هذه القصة تدخل من بدايتها، وسرد أحداثها في تكوين الحجاج؛ فيذكّرهم نوح –عليه السلام– إن قرّروا الرفض فإنه لم يسألهم على دعوته أجرًا ماديًّا يثقل كواهلهم: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٧١). "فمن طبيعة الناس أنهم لا يؤدون عملًا بدون أجر، ويؤكد لهم نوح –عليه السلام– أنه لن يشذّ عن طبيعة البشر في أخذ الأجر على العمل، ولكنه سيطلب الأجر ممن كلفه بالعمل"(٧٢): ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ ﴾(٧٣).

وبعد هذه المقدمات تأتي النتيجة، ويظهر القرار الرافض الذي يحمله حرف (الفاء) الذي يتكرر مرتين كتكرار (ثم). (فكذبوه/فنجيناه). فهؤلاء لم يستغلّوا الفرصة، ولم يفكّروا بالحجج والأدلة؛ فكانت عاقبتهم الغرق. أما الذين آمنوا مع نوح فنجوا معه. ويقدم مآل الفريقين بالعطف بين الجملتين ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ﴾(٧٤). إنها صورة الرحمة الإلهية بعباده بما يفيده (الفاء) من ترتيب وتعقيب، فكانت نجاتهم مقدمة على إيقاع عذاب الإهلاك بالمكذبين ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾(٧٥).

لقد كان الماء الذي فيه الحياة سبب الهلاك؛ لأنهم كذبوا وعصوا، فلو آمنوا لكان الماء نعمة ﴿يرسل السماء عليكم مدرارًا﴾ (٧٦) فتحول سبب النعيم بالكفر إهلاكًا. ولا تنفصل صورة العذاب عن إقامة الحجة على الكافرين والمكذبين.

وتُختَتَم قصة نوح –عليه السلام– بفعل أمر كما بُدئت ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾(٧٧). يحمل الدعوة

إلى التفكر وأخذ العظة والعبرة؛ كي لا يقع الإنسان في دائرة الهلاك. ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الحق سبحانه وتعالى لمّا أورد الحجج، وأقام البراهين، لم يترك الخلق وشأنهم، بل بيّن لهم العاقبة، وضرب لهم الأمثلة زيادة في التوضيح، واستجلاء للحقيقة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا من بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ من قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾(٧٨).

قصة موسى –عليه السلام-:

وبعد قصة نوح –عليه السلام-، وبيان دورها في إقامة الحجة، تعرض السورة الكريمة لقصة موسى وأخيه هارون –عليهما السلام- في دعوتهما فرعون وقومه. وتأتي القصة تأكيدًا لأهمية دور الأنبياء في إقامة الحجة، مؤيّدين بالبينة والدليل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا من بَعْدِهم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾(٧٩). وتتكرر معالم القصة السابقة، الأنبياء يقيمون حجة الله، ويأبى المتكبرون الحق، فيواجهون مصيرهم الذي بيّنه الخالق لهم مسبقًا.

ويظهر عنصر الحوار في قصة موسى بصورة أوسع منه في القصة السابقة، لافتًا إلى آليات التفاعل مع الحجج التي يسوقها موسى –عليه السلام-؛ لأن "غاية الحوار القرآني رد الفعل إلى التفكير المنظم الهادئ وبيان فساد موقف الخصم"(٨٠). وجاء الحوار على ثلاثة مستويات، أولها: حوار موسى –عليه السلام- مع المكذبين. وتسرد السورة الكريمة الحوار بالفعل المسند إلى جماعة الغائبين (قالوا) من موقف متأخر، فبعد أن جاء الرسول بالبيانات، وأقام الحجة عليهم، بدأ الحوار في هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ من عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(٨١). وتؤدي الجملة الاسمية ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ المؤكدة بأنّ وظيفة لافتة في الكشف عن طبيعة المكذبين الذين يَردّون الحق الواضح إلى السحر الباطل. كأنهم متيقنون من زعمهم الذي لا يملكون عليه دليلًا. فيردّ عليهم موسى –عليه السلام- باستفهام إنكاري: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾(٨٢). وهذا الموقف الحواري يحيل إلى ما بدأت به السورة الكريمة من استفهام ينكر موقف المكذبين الذين لا يملكون حجة عدا السحر ﴿أَكَانَ للنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾(٨٣)، بيد أن المثير العجيب إيراد اتهامهم للرسل بالسحر، الذي ينحى منحى تأكيديًّا ثابتًا، تحمله الجملة الاسمية المؤكَّدة في الموقفين كليهما. وتُظهر القصة أنّ المواقف التي تعرَّض لها الرسل متشابهة؛ وفي ذلك تسرية عن النبي –صلى الله عليه وسلم-، ودعوة للمعاندين لمراجعة أنفسهم.

والمنكرون لا يقدمون حجة إلا وكانت واهية، تنبع من تعنت، أو تخرج من هوى النفس: ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾(٨٤)، و"الهمزة للاستفهام البياني الذي يستفرغ فيه المكابر حججه لتبرير إصراره على العناد"(٨٥). إن البحث عن متاع الدنيا والحرص على شهواتها يصدّ الإنسان عن الآيات الواضحات.

ويتدخل فرعون في هذا الحوار؛ ليحوله إلى تحدّ واختبار لحجج موسى –عليه السلام-، طالبًا حضور كبار السحرة، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾(٨٦) ويبدأ الاختبار، فهذه الحجج إنْ سقطت أبطلت دعوة موسى، وثباتها يلزم اتّباعها والإذعان لها، ومع انتصار موسى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾(٨٧). ومن بلاغة الحجاج القرآني ذكره لموقف المكذبين وحجتهم؛ ليُعْمِل المتلقي فكره، ويتعرّف إلى الحجج والحجج المقابلة، فيتحول الموقف الوصفي إلى موقف حجاجي.

وينتقل حوار موسى –في المستوى الثاني- من المكذبين إلى مخاطبة قومه المؤمنين: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (٨٨)، وتأتي الإجابة مباشرة ﴿فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٩). ويتحول الحوار إلى دعاء يناجي فيه موسى ومن آمن معه رب العالمين. واللافت في هذا الحوار ورود الفعل (قالوا) مرة واحدة عند الامتثال لطلب الرسول، بخلاف تكراره مرتين في حوار المكذبين الذين انشغلوا بالجدال. وتظهر صورة "موسى النبي القائد في هذه الآيات من خلال علاقته الودودة بقومه... حاثًّا إياهم على التمسك بالعقيدة والصبر على الأذى والثبات على الحق، وهي صورة فيها ضرب من التعليم لأولئك الذين كانوا يعانون صنوف الأذى بمكة"(٩٠)؛ ليتحقق

الانسجام بين حالة المؤمنين، ودورهم في نشر الدعوة، التي لن تكون يسيرة سهلة، لكن عليهم الصبر والثبات.

والأسلوب الحواري له أهمية في الحجاج "بسبب ما ينطوي عليه من مهارات تحقق التأثير والإقناع والتجاوب ةالاستمالة"(٩١)، وكذلك يبرز التفاعل المرجوّ من العملية الحجاجية بما يكشف عن آليات التواصل مع المخاطَبين.

وثالث مستويات الحوار، يتحول إلى حوار إلهي يفصل بين المتخاصمين، يظهر فيه الحق، ويبطل فيه الباطل؛ ليكون حجة على من بلغه هذا الخطاب الرباني. فيستجيب –سبحانه– دعاء موسى وقومه ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٩٢). وأمّا فرعون وقومه فكان مآلهم إلى الهلاك؛ بما كسبوا واستكبروا. ويظهر فرعون في الحوار معلنًا ندمه في وقت لا توبة فيه ولا ندم. ويأتي الخطاب الإلهي فاصلًا: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(٩٣).

والزمن من أبرز خصائص الحجة القرآنية، فهي حجج منطقية تقوم على ترابطية دقيقة بين المقدمات والنتائج لها بداية، وتحكمها نهاية فما كان الله ليعذّب بشرًا بلا نذير يقيم عليهم الحجة. وإقامة الحجة بداية زمنها، ولا تُقبل بعد فوات وقتها، وبلوغ نهاية الأجل. وهذه العلاقة الزمنية بين بداية الحجة ونهايتها يبنها النص القرآني في قصة غرق فرعون؛ لتسهم في بناء الحجة. وتقدمها في صورة يتخيلها المخاطَب، فتقشعر لها جلود الذين آمنوا، وعبرة للمكذبين والمسوفين. إن هذه اللقطة القصصية التي تؤذن بنهاية القصة تربطها بنهاية قصة نوح؛ ليعود الماء من جديد –الذي هو نعمة الوجود– مهلكًا،(ولا يعلم جنود ربك إلا هو) (٩٤).

وتتقاطع قصة موسى مع قصة نوح –عليهما السلام– في غياب ذكر الحجج التي أقامها موسى على فرعون وقومه، ولم تذكر العصا معجزة موسى على وجه التحديد، وإنما أشير إليها في حوار موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾(٩٥)؛ وفي ذلك تثبيت لما جاء به محمد، فرسالة الأنبياء واحدة وما أقامه الله على الأمم السابقة ينسحب على اللاحقين.

قصة يونس –عليه السلام–:

وتأتي قصة يونس –عليه السلام– وقومه، ذلك المثال النموذج في آية واحدة ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَّمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾(٩٦)؛ لتكشف عن حالة الإيمان ومآلاتها في الحياة؛ تثبيتًا للمؤمنين، وتحفيزًا لمن في قلبه شك، وعبرة ترسم معالم الطريق الواضحة للمكذبين.

يقول ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره: "والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس... وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به... وسألوا الله أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله"(٩٧).

وتحمل هذه الإشارة القرآنية الخاطفة إلى قوم يونس –عليه السلام– مفارقة تحول القصة إلى نص مضادّ لما جاء في القصتين السابقتين اللتين قدمتا صورة لعناد المتلقين في قبول الحق، وإغفالهم الحجج الواضحات، واستعجالهم لعذاب ربهم سخريةً وتهكّمًا، وكشفتا عن الأذى الذي لحق بنوح وموسى –عليهما السلام– ومن اتبعهما. فالمفارقة في تقبل المتلقين –قوم يونس– لدعوة نبيهم.

"وللقصة القرآنية مكانة في بيان أغراضه التي تقوم على التذكير والتمثيل، دون أن تقطع عن النسق البياني العام فيه"(٩٨). فقصة يونس "هي المثل البارز للقوم الذي يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم، فيثوبون إلى ربهم وفي الوقت سعة، وهم وحدهم الذين آمنوا جملة بعد تكذيب"(٩٩). "وفي الآية تسلية للرسول –صلى الله عبيه وسلم– عما أصابه من حزن بسبب إعراض قومه عن دعوته، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة، وإنذارهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود"(١٠٠).

إنّ قصة يونس –في سياق هذه السورة الكريمة– تقدم مشهدًا مكثّفًا لحالة إنسانية تعرضت لمفاهيم جديدة، بدأ المخاطَبون بالتفاعل مع الآيات والحجج التي جاءهم بها الرسول، التي لم تذكر في هذا الموضع –أيضًا–، فالحجج التي ذكرتها السورة الكريمة وأقامتها على مشركي قريش تدخل في بناء القصص الثلاثة في سورة يونس، والقصص ذاتها تتحول إلى مكون حجاجي تقدم دورًا تصويريًّا وعظيًّا في إقامة الحجة ينسجم مع سياقها. وهذا التفاعل قادهم –لمّا

بدت لهم علامات العذاب- إلى الإذعان بصدق الدعوة، فنجوا من الهلاك؛ بإيمانهم، ضمن المسافة الزمنية المتاحة، وقبل أن يحلّ بهم عذاب الهلاك الذي لا تنفع معه توبة. فالدعوة إلى الله واحدة على مر الأزمان والعصور، "وقصص الأنبياء في إطار الدعوة إلى الإيمان بالله والإشارة إلى وحدة الدعوة على رغم تعدد الأنبياء واختلاف الأزمنة والأمكنة والأقوام"(١٠١).

وخلاصة القول يتميز الخطاب القرآني في سورة يونس بانسجام يجعل منها وحدة واحدة تتفاعل وتتكامل في أداء المعنى. وثمة شرطان يجب توافرهما؛ ليعد النص منسجمًا "أولهما هو نموه بتوفير معلومات جديدة باستمرار حتى لا يكون مجرد تكرار، وثانيهما حدّ أدنى من التكرار يستوجب إعادة بعض المحتويات بصفة عامة"(١٠٢).

إن السورة الكريمة قدمت حججها وفق بناء متماسك يتصل بأجزاءٍ مترابطة. أو بحسب سيد قطب يجد "الترابط بكل ألوانه في سياق السورة من مطلعها إلى إلى خاتمها، مما يجعلها وحد متكاملة متشابكة"(١٠٣)، فالحجج الإلهية تابعها قصص لقوام سابقة، حوت كل قصة تذكيرًا بخاتمة الهلاك للظالمين، والنجاة للمصدقين. وتبيّن لنا عدم العودة إلى ذكر الحجج في بناء القصص، فجاء التكرار موحيًا مشيرًا يفسح المجال لعقل المتلقي - في كل زمان ومكان - بملء الفراغ؛ ليتناسب مع تفكيره وواقعه.

الهوامش

(١) ابن جني، الخصائص، الخصائص تحقيق محمد علي النجار، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة " آفاق عربية "، بغداد – العراق، ط٤، ١٩٩٠م، ج:١، ص: ٣٤.

(٢) انظر: هدسن، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، مراجعة عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ط١، ١٩٨٧ م، ص: ٢٠٤- ٢٠٦.

(٣) انظر: لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ط١، ١٩٨٧م، ص: ٢٤٠- ٢٤٢.

(٤) البعلبكي، رمزي، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٠م، ص:١١٩.

(٥) الخولي، محمد علي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٢م، ص: ٥٧.

(٦) العموش، خلود، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق "مثل من سورة البقرة"، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط١، ٢٠٠٥م، ص: ٢٦.

(٧) خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩١م، ص: ٥٦.

(٨) الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار إحياء الترث العربي، الأفق للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ج: ١، ص: ٤٨٤.

(٩) سورة يونس، الآية: ٢.

(١٠) انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض – السعودية، ط: ٢، ١٩٩٩م، م: ٤، ص: ٢٤٥.

(١١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة –مصر، ط٢، ١٩٣٥م، م٣، ص: ١٧٤٦.

(١٢) سورة يونس، الآية: ٢.

(١٣) الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف المالكي، تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، تحقيق: علي محمد المعوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وشارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ج٣، ص: ٢٣٤.

(١٤) سورة يونس، الآية: ٣.

(١٥) سورة يونس، الآية: ٤.

(١٦) سورة يونس، الآية: ٤.

(١٧) سورة يونس، الآية: ٣.

(١٨) الدهري، أمينة، الحجاج وبناء الخطاب: في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء –المغرب، ط١، ٢٠١١م، ص: ٨- ٩.

(١٩) سورة يونس، الآية: ٥.

(٢٠) سورة يونس، الآية: ٦.

(٢١) سورة يونس، الآية: ٥.

(٢٢) سورة يونس، الآية: ٥.

(٢٣) سورة يونس، الآية: ٦.

(٢٤) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، أيها الولد، تقديم وتحقيق: جميل إبراهيم حبيب، دار القادسية للنشر والتوزيع، بغداد –العراق، ١٩٨٤م، ص: ٢٥.

(٢٥) سورة يونس، الآية: ٧.

(٢٦) سورة يونس، الآية: ٨.

(٢٧) الثقفي، أحمد بن إبراهيم، البرهان في تناسب سور القرآن، تقديم وتحقيق: سعيد بن جمعه الفلاح، دار ابن الجوزي، الدمام –السعودية، ط١، ١٤٢٨ه، ص: ١٠٨.

(٢٨) سورة يونس، الآية: ٩.

(٢٩) سورة يونس، الآية: ٩.

(٣٠) سورة يونس، الآية: ٧.

(٣١) سورة يونس، الآية: ٩.

(٣٢) سورة يونس، الآية: ٩.

(٣٣) سورة يونس، الآية: ٢٠.

(٣٤) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٣٥) ميارة، لمهابة محفوظ، مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص: ٥١٣.

(٣٦) سورة يونس، الآية: ٣١.

(٣٧) ماييير، ميشيل، اللغة والمنطق والحجاج- الباب الثاني: اللغة والسياق، تقديم وترجمة: محمد أسيداه، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات تطبيقية في البلاغة الجديدة، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ١٦.

(٣٨) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، بدائع التفسير الجامع لما فسَّره الإمام ابن القيم الجوزية –رحمه الله-، جمعه وخرج أحاديثه: يسري السيد محمد، راجعه: صالح أحمد الشامي، دار ابن الجوزي، الدمام –السعودية، ١٤٢٧ه، م: ٢، ص: ٣٦- ٣٧.

(٣٩) سورة يونس، الآية: ٣١.

(٤٠) صمود، حمادي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، مرجع سابق، ص: ١٥.

(٤١) سورة يونس، الآية: ٣٤.

(٤٢) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٤٣) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٤٤) أبا سيدي، عليوي، التواصل والحجاج في التداوليات الحجاجية للحوار (التفكير) النقدي نموذج المدرسة الهولندية – إيمرين وغروتندورست، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات تطبيقية في البلاغة الجديدة، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٧١..

(٤٥) سورة يونس، الآية: ٣٦.

(٤٦) انظر: صولة، عبد الله، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، مرجع سابق، ص: ٣٤٥.

(٤٧) المرجع السابق، ص: ٣٤٦.

(٤٨) سورة يونس، الآية: ٤٨.

(٤٩) سورة يونس، الآية: ٥١.

(٥٠) سورة يونس، الآية: ٥٣.

(٥١) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت –لبنان، ط٣، ٢٠٠٩م، ص: ٤٦٦.

(٥٢) سورة يونس، الآية: ٦٧.

(٥٣) سورة يونس، الآية: ٦٨.

(٥٤) ماييير، ميشيل، اللغة والمنطق والحجاج، مرجع سابق، ص: ١٧.

(٥٥) سورة يونس، الآية: ٦٨.

(٥٦) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة –مصر، ٢٠٠٥م، ص: ٣٨٦.

(٥٧) قطب، محمد، القصة في القرآن الكريم مقاصد الدين وقيم الفن، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ٢٠٠٢م، ص: ٣٣.

(٥٨) انظر: إسلام، الصاحب، أدب القصة القرآنية، مجلة الإيضاح، مركز الشيخ زايد الإسلامي –بيشاور، الصفحات: ٩٠- ١٠٢، ٢٠١١م، ص: ٩٣.

(٥٩) سورة يونس، الآية: ٢٠.

(٦٠) إسلام، صاحب، أدب القصة القرآنية، مرجع سابق، ص: ٩٦.

(٦١) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القديرالجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، اعتنى به: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط٤، ٢٠٠٧م، ج: ٧، ص: ٦٣٥.

(٦٢) الخازن، علاء الدين علي بن محمد، تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، ضبطه وصححه: عبد السلام شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ج: ٢، ص: ٤٥٤.

(٦٣) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٦٤) سورة يونس، الآية: ١٣.

(٦٥) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٦٦) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٦٧) اعلاوي، نزيه محمد، الشخصيات القرآنية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان- الأردن،٢٠٠٦م، ص: ١٤.

(٦٨) المرجع السابق، ص: ١٤.

(٦٩) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٧٠) قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة – مصر، ط: ٣٢، ٢٠٠٤م، م٣، ص: ١٧٥٠.

(٧١) سورة يونس، الآية: ٧٢.

(٧٢) كريت، محمود وسف، نوح عليه السلام في القرآن الكريم، مجلة كلية الدعوة وأصول الدين بمكة المكرمة- السعودية-،س١، ع١، ١٩٨٣م، عدد الصفحات ١١٧-١٢٧، ١٩٨٣م، ص: ١١٨.

(٧٣) سورة يونس، الآية: ٧٢.

(٧٤) سورة يونس، الآية: ٧٣.

(٧٥) سورة يونس، الآية: ٧٣.

(٧٦) سورة نوح، الآية: ١١.

(٧٧) سورة يونس، الآية: ٧٣.

(٧٨) سورة يونس، الآية: ٧٤.

(٧٩) سورة يونس، الآية: ٧٥.

(٨٠) تمام، حسان، البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، منشورات عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط١، ١٩٩٣م، ص: ٤٤١.

(٨١) سورة يونس، الآية: ٧٦.

(٨٢) سورة يونس، الآية: ٧٧.

(٨٣) سورة يونس، الآية: ٢.

(٨٤) سورة يونس، الآية: ٧٨.

(٨٥) يوسف، عبد الكريم محمود، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم: غرضه – إعرابه، طبع في مطبعة الشام، توزيع مكتبة الغزّالي، دمشق – سوريا، ط١، ٢٠٠٠م، ص: ٦٢.

(٨٦) سورة يونس، الآية: ٧٩.

(٨٧) سورة يونس، الآية: ٨٣.

(٨٨) سورة يونس، الآية: ٨٤.

(٨٩) سورة يونس، الآية: ٨٥.

(٩٠) اعلاوي، نزيه محمد، مرجع سابق، ص: ١٢٠.

(٩١) دحماني، نور الدين، بلاغة الحوار ووظيفته الحجاجية في قصص سورة الكهف، دراسات تراثية مختبر تراث الغرب الإسلامي- كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس- المغرب، ع١، عدد الصفحات: ١٤١ -١٦٢، ٢٠١٢م، ص: ١٤١.

(٩٢) سورة يونس، الآية: ٨٩.

(٩٣) سورة يونس، الآية: ٩٢.

(٩٤) سورة يونس، الآية: ٢٠.

(٩٥) سورة يونس، الآية: ٨٠.

(٩٦) سورة يونس، الآية: ٩٨.

(٩٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، م٤، ص: ٢٩٧.

(٩٨) عوضين، إبراهيم، سمات القصة القرآنية، مجلة كلية اللغة العربيةبالمنصورة(جامعة الأزهر)، مصر، العدد: ٨، الصفحات: ٢١ – ١٩٨٧،٤٠م، ص: ٣٢.

(٩٩) قطب، سيد، في ظلال القرآن، م٣، مرجع سابق، ص: ١٧٥٢.

(١٠٠) طنطاوي، محمد سيد ،القصة القرآنية في القرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة- مصر، ١٩٩٥م، ص: ٧٢٠-٧٢١.

(١٠١) تمام، حسان، البيان في روائع القرآن، مرجع سابق، ص: ٥٥١.

(١٠٢) المبخوت، شكري، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مرجع سابق، ص: ٣٧٣.

(١٠٣) قطب، سيد، في ظلال القرآن، مرجغ سابق، م: ٣، ص: ١٧٥٣.

قائمة المصادر والمراجع

١. إسلام، الصاحب، أدب القصة القرآنية، مجلة الإيضاح، مركز الشيخ زايد الإسلامي –بيشاور، الصفحات: ٩٠- ١٠٢، ٢٠١١م.

٢. اعلاوي، نزيه محمد، الشخصيات القرآنية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان- الأردن،٢٠٠٦م.

٣. البعلبكي، رمزي، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٠م

٤. تمام، حسان، البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، منشورات عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط١، ١٩٩٣م.

٥. الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف المالكي، تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، تحقيق: علي محمد المعوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وشارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، ط١، ١٩٩٧م.
٦. ابن جني، الخصائص، ج: ١، الخصائص تحقيق محمد علي النجار، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة " آفاق عربية "، بغداد – العراق، ط٤، ١٩٩٠م.
٧. الخازن، علاء الدين علي بن محمد، تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، ضبطه وصححه: عبد السلام شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
٨. خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩١م.
٩. الخولي، محمد علي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٢م.
١٠. دحماني، نور الدين، بلاغة الحوار ووظيفته الحجاجية في قصص سورة الكهف، دراسات تراثية مختبر تراث الغرب الإسلامي- كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس- المغرب، ع١، عدد الصفحات: ١٤١ -١٦٢، ٢٠١٢م.
١١. الدهري، أمينة، الحجاج وبناء الخطاب: في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء –المغرب، ط١، ٢٠١١م.
١٢. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة –مصر، ٢٠٠٥م.
١٣. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القديرالجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، اعتنى به: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط٤، ٢٠٠٧م.
١٤. الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار إحياء الترث العربي، الأفق للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
١٥. صولة، عبد الله، الحجاج في القرآن الكريم من أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت –لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.
١٦، في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١١م.
١٧. طنطاوي، محمد سيد،القصة القرآنية في القرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة- مصر، ١٩٩٥م.
١٨. عوضين، إبراهيم، سمات القصة القرآنية، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة(جامعة الأزهر)، مصر، العدد: ٨، الصفحات: ٢١ – ١٩٨٧،٤٠م.
١٩. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، أيها الولد، تقديم وتحقيق: جميل إبراهيم حبيب، دار القادسية للنشر والتوزيع، بغداد –العراق، ١٩٨٤م.
٢٠. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة –مصر، ط٢، ١٩٣٥م.
٢١. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة – مصر، ط: ٣٢، ٢٠٠٤م.
٢٢. ابن القيم، محمد بن أبي بكر، بدائع التفسير الجامع لما فسَّره الإمام ابن القيم الجوزية –رحمه الله-، جمعه وخرج أحاديثه: يسري السيد محمد، راجعه: صالح أحمد الشامي، دار ابن الجوزي، الدمام –السعودية، ١٤٢٧ه.
٢٣. قطب، محمد، القصة في القرآن الكريم مقاصد الدين وقيم الفن، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ٢٠٠٢م.
٢٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض – السعودية، ط: ٢، ١٩٩٩م.
٢٥. كريت، محمود يوسف، نوح عليه السلام في القرآن الكريم، مجلة كلية الدعوة وأصول الدين بمكة المكرمة- السعودية-،س١، ع١، ١٩٨٣م، عدد الصفحات ١١٧-١٢٧، ١٩٨٣م.
٢٦. لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ط١، ١٩٨٧م.
٢٧. مجموعة من الباحثين، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية تونس١، كلية الآداب منوبة، سلسة آداب، مجلد: XXXIX، تولت كلية منوبة طبعها، د.ت.
٢٨. مجموعة من الباحثين، الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات تطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد –الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
٢٩. هدسن، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، مراجعة عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ط١، ١٩٨٧ م.
٣٠. يوسف، عبد الكريم محمود، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم: غرضه – إعرابه، طبع في مطبعة الشام، توزيع مكتبة الغزّالي، دمشق – سوريا، ط١، ٢٠٠٠م.